آداب المباحثة

المباحثة امرٌ خطيرٌ لا يخفى على ذي مسكةٍ مكانهُ من كشف الحقائق لكن والهفتَ العلم عليهِ قد تشوَّه جمالهُ وتنكرت حقيقتهُ حتى كاد لا يعرف . وخالطهُ من حبِ الانتصار للرأي شوائب . ونزل بهِ من الاهواء مصائب بحيث أضحى وقوعهُ كثيفًا لعوار الأدباء . وعيوب العلماء . ونشرهُ في المجلات والجرائد فضيحةٌ دائمةٌ . وهتيكةٌ على الدهر باقيةٌ . فدفعني الحرص على ماوراءهُ من اظهار الحقائق وتحقيق المسائل ان اكتب هذه المقالة عساها ان تكون الدواء الشافي للمباحثة من التعنُّت والتهكم والاستهزاء والتعيير والواقي كرامتها من المقاذعة والبذاءة والمحضها للكشف عن الحق المستتر تحت حجاب الخفاء . ولقد قسمتُ الكلام فيها الى قسمين وخاتمةٍ القسم الاول في حقيقة المباحثة وفوائدها والقسم الثاني فيما طرأ عليها من العلل والشوائب والخاتمة في ان تقدُّم هذا العصر المشارف الغاية كان حريًّا ان يمتاز بتخلص المباحثة من تلك العاهات المشار اليها

﴿ في حقيقة المباحثة وفوائدها ﴾ المباحثة اصلها من البحث في التراب لطلب شيءٍ تحتهُ فاستعيرت للمخاطبة في مسئلة ما قصد الوصول الى حقيقتها فيعدّ ما عليها من الابهام كالترابِ المغشي لما يطلب تحتهُ . ولها شرائط عدَّة منها ان يكون المباحثان من اهل العلم فيما تقع عليهِ المباحثة فان كانت المسئلة فقهيَّة او رياضية او لغوية وجب ان يكونا فقيهين او رياضيين او لغويين او طبيبين والاَّ فان كانا ممن يجهلهُ او كان احدهما جاهلهُ فينبغي ترك المباحثة على الافتراض الاول فمن لا يدري ما العوم لا يقتحم اليمّ . ويجب انقياد الجاهل للعالم على الافتراض الثاني كما ينقاد الضرير للبصير والاَّ طال الكلام على غير طائلٍ

ومنها اتجاه النية الى اظهار الحق ليس غير حتى يتلقاهُ وقد حصص ببرهان قرنهِ كما يتلقَّى الحبيب الغائب ويعترف لمظهرهِ بالفضل وينادي بلسان حالهِ على رؤوس الاشهاد ان قبول الحجة القاطعة من اكبر الادلة على الرسوخ في العلم ومن أقطع الحجج لاجلال قدرهِ ورعاية كرامتهِ وان المكابرة اقوى شاهد على قلة البضاعة واصدق دليلٍ على جهل المكابر

ومنها اتباع القياس المنطقي من اجل انهُ اقرب طريق الى معرفة الصواب من الخطاء وتبيُّن الحق من الباطل فهو يخلِّص البحث من كل ماليس لهُ دخلٌ في موضوعهِ . واما اذا عُدِل عنهُ فيدخل في المباحثة ما لا يمسُّ المقصود مما هو خارجٌ عن قوامها ولبابها فيحول بين الفهم والاطلاع عليهِ حائل من لواحق ومضافاتٍ يضطر المطالع ان ينشد المقصود بينها كما ينشد ضالَّتهُ

واما فوائد المباحثة فكنوزٌ لا تفك ارصادها الاَّ على ضيائها ومعاقل حصينةٌ لا تفتح ولا ترام الاَّ بقيادتها. ولا جرم ان المباحثة اذا توفرت شرائطها من عقد النية على كشف البراقع عن وجوه الحقائق ومراعاة الطريقة المنطقية وتبحر المباحثين فيما يباحثان فيهِ جاءت بعد الظلام الساتر بالصبح الكاشف . ولا تسل عما وراء ذلك الكشف من العوائد فان كانت المباحثة في مسئلةٍ شرعيةٍ او نظامية سلم ذو الحق من خسران حقهِ وان كانت في المسائل الطبية وتشخيص الادواء صينت الحياة من آفات الغلط القتَّالة وان كانت في المعاملات التجارية والاختلافات الحسابية حُفظت الثروة من الابتلاع

﴿ فيما طرأ على المباحثة من العلل والشوائب ﴾ الغرض من المباحثة انما هو الوصول الى الحقّ ولقد كانت ولم تزل بين عارفي الحقّ ومكرّميهِ مرعية الآداب محترمة الجناب دالَّةً بخلوصها من لهيب ما يتأجَّج في الصدور من الحسد وما يتلبَّد في القلوب من الحقد على بسطة العلم وسلامة الطباع فيمن يوقُونها حقَّها وكان تسليم احد المباحثين للآخر يكسوهُ جلالةً قدرٍ في عين المصيب بل كان العالم اذا رأى الحقّ في جانب مباحثهِ تلقَّاهُ بالتسليم وعدَّ اللياذ بالمغالطة حطةً في قدرهِ وغضًّا من شأنهِ وقبول الحجة دليلاً على علمهِ . واما المصيب فما كان يحسب وقد اصاب في ذلك البحث انهُ اوسع من المخطئ علمًا ولا أرسخ منهُ في ذلك العلم قدمًا بل كان يثبت عندهُ من سرعة اذعان المخطئ للبرهان وانقيادهِ للدليل ان خطأَهُ انما هو من آثار ما يأخذ الذهن من الكلال والسهو والنسيان و يستدلُّ من ذلك على أنَّ لمخطَّإهِ علمًا رحبًا وخلقًا مهذَّبًا . وحسبك دليلاً على ان هذه صفة المباحثة بين اكابر العلماء ما يروى عن السعد والسيّد لما ضمَّهما مجلس حافل وجرت بينهما مباحثة علميَّة وكان السعد يوم ذاك شيخًا طائر الصيت عالي الكعب في العلم جليل القدر في النفوس وكان السيد يومئذٍ شابًّا لم يظفر عند الناس بما نالهُ السعد من جلالة القدر ومع هذا فقد تلقَّى السعد كلامهُ بحضرة عددٍ من اعيان الناس بالتسليم فقيل لهُ لِمَ سلَّمتَ ألم يكن في علمك ما يدفع حجتهُ . قال بلى وفي علمي ما يبلغ بي أن اظهرهُ للناس مخطئًا . ولكن لو فعلتُ ما اعتقدني السيد عالمًا . ووالله لئن يعتقدني الناس مصيبًا لا يكافئُ ان يعتقدني السيد جاهلاً . فعظم السعد في عين السيد واعتقدهُ ذا فضل كبير فكان ذلك على حدّ ما جاء في مجلة المقتطف البهية في باب المناظرة ونصُّ ما هنالك " انما الغرض من المناظرة التوصُّل الى الحقائق فاذا كان كاشف اغلاط غيرهِ عظيماً كان المعترف بأغلاطهِ اعظم "

ومن المباحثات المراعى فيها آداب البحث ما جرى من الحجاج الطويل بين اصحاب

الطائيين حبيب والبحتري فهو مخلص لابانة الحق لا حظ فيهِ للوقيعة والمهانرة ولا موضع للتهكم والاستهزاء ومن لم يكن قد قرأ كتاب الموازنة فهذه فقرة منهُ جديرة بأن تتخذ قاعدة في باب المباحثة الأدبية

قال صاحب ابي تمام كيف يجوز لقائل ان يقول ان البحتري أشعر من ابي تمام وعن أبي تمام أخذ وعلى حذوهِ احتذى ومن معانيهِ استقى وباراهُ حتى قيل الطائيين الاكبر والطائي الاصغر . واعترف البحتري ان جيد ابي تمام خير من جيدهِ على كثرة جيد ابي تمام . فهو بهذه الخصال أن يكون أشعر من البحتري أولى من ان يكون البحتري اشعر منهُ

قال صاحب البحتري اما الصحيفة فما صحيحهُ ولا تلتفت لهُ ولا روى ذلك احد عنهُ ولا نقلهُ ولا رأى قط انهُ محتاج اليهِ . ودليل هذا الخبر المستفيض من اجتماعهما وتعارفهما عند ابي سعيد محمد بن يوسف الثغري وقد دخل اليهِ البحتري بقصيدتهِ التي اولها " أأفاق صبٌّ من هوًى فأفيقا " وابو تمام حاضر فلما أنشدها علق ابو تمام ابياتاً كثيرة منها فلما فرغ من الانشاد أقبل ابو تمام على محمد بن يوسف فقال ايها الأمير ما ظننت ان احداً يقدم على ان يسرق شعري وينشدهُ بحضرتي حتى اليوم . ثم اندفع ينشد ما حفظهُ حتى أتى على كثير من قصيدة البحتري . ورأى ابو تمام الانكار في وجهِ ابي سعيد محمد بن يوسف فحينئذٍ قال لهُ ابو تمام ايها الامير والله ما الشعر الا لهُ وانهُ احسن فيهِ الاحسان كلهُ واقبل يقرظهُ ويصف معانيهُ ويذكر محاسنهُ ثم جعل يفخر باليمن وانهم ينبوع الشعر ولم يقنع من محمد بن يوسف حتى أضعف لهُ الجائزة . فهذا الخبر يبطل ما ادعيتم الى ان قال قال صاحب ابي تمام "فابو تمام انفرد بمذهب اخترعهُ وصار فيهِ اولاً واماماً متبوعاً وشهر بهِ حتى قيل هذا مذهب ابي تمام وطريقة ابي تمام وسلك الناس نهجهُ واقتفوا أثرهُ . وهذه فضيلة عري عن مثلها البحتري "

قال صاحب البحتري ليس الامر لاختراعهِ لهذا المذهب على ما وصفتهُ ولا هو بأوّل فيهِ ولا سابق اليهِ بل سلك في ذلك سبيل مسلم واحتذى حذوهُ وافرط وأسرف وزال عن النهج المعروف والسنن المألوف . وعلى ان مسلماً ايضاً غير مبتدع لهذا المذهب ولا هو اوّل فيهِ ولكنهُ رأى هذه الانواع التي وقع عليها اسم البديع وهي الاستعارة والطباق والتجنيس منثورة متفرقة في اشعار المتقدمين فقصدها واكثر في شعرهِ منها . الى ان يقول فقد سقط الآن احتجاجكم باختراع ابي تمام لهذا المذهب وسبقهِ اليهِ . وصار استكثارهُ منهُ وافراطهُ فيهِ من اعظم ذنوبهِ واكبر عيوبهِ . وحصل للبحتري انهُ ما فارق عمود الشعر وطريقتهُ المعهودة مع ما نجدهُ كثيراً في شعرهِ من الاستعارة والتجنيس والمطابقة وانفرد بحسن العبارة وحلاوة الالفاظ وصحة المعاني .

وحيث وقع الاجماع على استحسان شعرهِ واستجادتهِ وروى شعرهُ واستحسنهُ سائر الرواة على طبقاتهم واختلاف مذاهبهم فمن نفق على الناس جميعاً أولى بالفضيلة واحقُّ بالتقدمة

قال صاحب ابي تمام انما اعرض عن شعر ابي تمام من لم يفهمهُ لدقة معانيهِ وقصور فهمهِ عنهُ. وفهمهُ العلماء والنقَّاد في علم الشعر. واذا عرفت هذه الطبقة فضيلتهُ لم يضرهُ طعن من طعن بعدها عليهِ

قال صاحب الحجتري ان ابن الاعرابيّ واحمد بن يحيى الشيباني وقبلهما دعبل بن الخزاعي قد كانوا علماء بالشعر وكلام العرب وقد علمتم مذاهبهم في ابي تمام وازدراءهم بشعرهِ وطعن دعبل عليهِ وقولهم ان ثلث شعرهِ محال وثلثهُ مسروق وثلثهُ صالح

قال صاحب ابي تمام فقد بطل احتجاجكم بالعلماء وتفضيلكم لشعرهِ عليهِ لان دعبلاً كان يشنأ أبا تمام ويحسدهُ وذلك مشهور معلوم منهُ فلا يقبل قول شاعرٍ في شاعرٍ. واما ابن الاعرابي فقد كان شديد التعصب عليهِ لغرابة مذهبهِ ولأنهُ كان يرد عليهِ من معانيهِ مالا يفهمهُ ولا يعلمهُ فكان اذا سئل عن شيءٍ منها يأنف ان يقول لا أدري فيعدل الى الطعن عليهِ والدليل على ذلك انهُ أُنشد يوماً ابياتاً من شعرهِ وهو لا يعلم قائلها فاستحسنها وامر بكتبها فلما عرف انهُ قائلها قال خرقوهُ

واما المباحثة المزَّينة من الأدب بما هو أبهج من الديباج الخسرواني المجللة من التهذيب بالواجب لمقام العلم والمقتضى لمرتبة الفضل فمباحثة الماشي والكندي فكلاهما جاء بحججهِ بأجمل صورة وأحمد طريقة قاصداً الخير والسعادة لمباحثهِ. وقد تماديا في الكلام حتى لم يدَّخر احدٌ منهما شيئاً من الادلة على صحة ما هو عليهِ. ومن تعهد المباحثات الدينية رأى هذه المباحثة اعلى قدراً واجمل وقعاً ولا بدع فقد وقعت بين صفيَّين كلٌّ منهما يودّ لصفيهِ ما بودّ لنفسهِ وكلاهما على يقين من صحة دينهِ

واما معظم ما وقع في ايامنا من المباحثات العلمية والمناظرات الادبية والمجادلات المختلفة المواضيع فقد كتبت بعبارةٍ تمثل ما في الصدور من الشنآن وتصوّر ما تحت الاضالع من العدوان وتدلُّ على ما عند اصحابها من الظماء القاتح الى التحقير والاستهانة والتشنيع مما هو غريب عن اخلاق المتحققين بالعلم الراغبين في الانتهاء الى الحقّ

هذا واعلم ان المهاترة وما يتبعها من شوائب المباحثة لا يرتفع ما دام كلٌّ من المباحثين يخشى ان يسقط من العيون اذا اعترف بالصواب لمباحثهِ ولا تزول المشاغبة والمغالطة والتورُّك على الاستهزاء ما قام في اذهانها ان من تلزمهُ الحجة في مسئلة ما مقصر منحطّ الشان ضعيف العلم في سائر المسائل. بل لا تنفصل المناظرات على ما يساوق جلالة العلم ويوافق نخامة العدل ما آثر كلٌّ من المناظرين الانتصار للرأي على الانتصار للحق

وفي هذا الزمان من طلاَّب الاشتهار بالمماحكة والتعنت والمكابرة والمواربة والمراوغة عددٌ ربما يتحككون باهل الفضل تحكك العقرب بالافعى وجلهم ممن غلبتهُ شهوة التفوُّق او ران على قلبهِ الميل الى الانتظام في عداد العلماء ولم تتهيأ لهُ الاسباب لادراك هذه الامنية فيحسب ان في مثل هذه الترَّهات تبريداً لحرارة شهوتهِ ويفوتهُ ان ذلك كشفٌ لعوارهِ واظهارٌ لقصورهِ عن قضاء اوطارهِ. لكن ما في اليد حيلة ما دامت الشهوة تعمي البصيرة. ولعلَّ في المطالعين من يستغرب خلوّ المناظرة عن قوارص الكلام وهي حربٌ اسنتها الاقلام وتحت اضالع المتحاربين من لظى العداوة للآخر ما لو تمثل للعيان لأذاب الحجر ورمد الشجر. ويعجب ممن يحاول اخفاء حرقة الانقلاب ويتوخَّى من المناظر الاعتراف لمناظرهِ بالاصابة وقد أتى بالحجة الكاشفة للحق المتعالية عن ان تصاب بنبال الردّ ويقول هل من جريح لا يتألم او طعين لا يضجّ من ألم الطعن. فلمَ تسعى في طلب الممتنع وتجدّ وراء المتعذّر وانت تشعر من نفسك ان كلمة (أخطأتَ) هوان وكلمة (أصبتَ) شرفٌ وشتَّان ما بين شعورك بالأولى وشعورك بالثانية. قلت من نوى في المناظرة الوقوف على الصواب وعلا كعبهُ في معرفة العلم المتناظر فيهِ لا تسقط عندهُ كرامة المخطىء لغلطةٍ او غلطات ولا يسمح لقلمهِ ان يتنكب طريق البحث وتأبى عليهِ كرامة العلم ان يغض من مباحثهِ بل يرعى مقامهُ ويحافظ على كرامتهِ ويلتزم معهُ الأدب. ولا يغيب عن علمهِ انهُ قد يخطيءُ في مسائل أُخر ولا ينتبه لخطائهِ ما لم ينبههُ عالمٌ من مثل هذا الخطإ. ولكن هيهات ان تتوفر هذه الشرائط في المناظر وهو غاضُّ الطرف عن عيوب نفسهِ منصرف النظر عمَّا فطرت عليهِ البشرية من السهو والنسيان وكلال البصيرة وغير ملتفتٍ الى ما يتولد عن المهاترة والمقاذعة ولا تتقى مباحثتهُ من جملي ألدغ من الافاعي وعباراتٍ أجرح من الخناجر وكلم أنتن من الظربان ما لم يربَّ على احترام العلم ومعرفة قدرهِ ويؤخذ بالتهذيب وتدمث اخلاقهُ بحسن التربية

﴿ الخاتمة ﴾ قد علمت من كل ما مرَّ فوائد المباحثة وشرائطها وما طرأ عليها من العلل وعرفت العلاج النافع فلم يبقَ سوى تعاطيهِ فبا كر تجرَّع كأسهِ ولاسيما وقد أوشكت ان تغرب شمس القرن التاسع عشر الذي على امتيازهِ بآثار النجاح في العلوم والفنون والصنائع تعدَّد فيهِ من شوَّهوا آداب البحث بالشتم والتعيير وتهجين النسب الى غير ذلك مما يدلُّ على سفالة قائلهِ ولؤم طينتهِ وقلة راس مالهِ من العلم. ومما يحثك على النظر في هذه المقالة ان شمس القرن العشرين كادت ان تشرق على الكون فأجدر بنا ان نتلقاهُ لا كمن يعدُّون السنن الأدبية اساطير موضوعة او الفاظاً مصنوعة وأحرِ بنا ان لا ندع جيد القرن الجديد عاطلاً من حلاها غير مهذب المباحثات ولا مرتب المحاورات

سعيد الشرتوني